الجغرافيا وخريطة الإسلام في العالم

عبد الرحمن السالمي

منذ القرن التاسع عشر سادت أطروحات النظريات الشاملة في التاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا والأديان. ورغم العوامل العنصرية والتمييزية الظاهرة في تلك الفرضيات والنظريات؛ فإنّ شموليتها أو عالميتها كانت عاملاً إيجابياً في النظر إلى الظواهر كلّها على أنها ظواهر عالمية أو إنسانية، ثم تلت تلك الشمولية في الرؤية والنظر رؤى الخصوصيات أو المجالات الحضارية والثقافية. وعليها بنى بعض المستشرقين والجغرافيين والمؤرخين رؤاهم الخاصّة لجغرافية الإسلام وتطوراتها عبر التاريخ. وأشهر تلك النظريات مقولة الجغرافي الفرنسي بلانول في الطبيعة الصحراوية والسهوبية (=المناطق شبه الصحراوية) للإسلام، أخْذاً من المناطق التي انتشر فيها وبقي حضارةً وكثرةً سكّانية، وفي الواقع فإنّ تلك صورة أكثر منها واقعاً تاريخياً. فقد خرج الإسلام من الجزيرة العربية ذات الطابع البدوي، ومن أكبر الشعوب التي اعتنقته الشعوب التركية، والتي خرجت من آسيا الوسطى ذات الطابع البدوي والسهوبي. وبحسب ابن خلدون ـ كما يقول بلانول ـ والذي كتب

بعمقٍ عن طبيعة الدول والسلطات في الإسلام؛ فإنّ العصبيات القَبَلية ذات الأُصول البدوية، والقادمة من الصحاري إلى المدن هي التي حدَّدت مصائر مجتمعات المسلمين الحَضَرية وغيرها. بَيْدَ أنّ أندريه ميكيل وهود جسون نَبَّها إلى خَطَل هذه الرؤية رغم ظاهرها المُغري، ومن الناحيتين الجغرافية والبشرية. إذ إنّ أكبر مناطق الإسلام السكانية على مدى التاريخ كانت على البحار ومن حولها أو على الأنهار الكبرى، ومن ذلك مناطق ومجالات المحيط الهندي وشرق آسيا والبحر المتوسط وأنهار: النيل والفرات وسيحون وجيحون. والحياة البحرية والنهرية تتطلب استقراراً وحواضر كبرى ووسطى وصغرى، واريافاً زراعيةً، لا تستطيع البداوة أن تقومَ بها وعليها. إنما هناك صحارى وبداوة بالفعل في عالم الإسلام، أدّت أدواراً مهمةً عبر التاريخ؛ لكنها لم تحدّد مصائر الاجتماع الإسلامي، بل حدَّدتْهُ الحواضر والمستقرات الكبرى. ولذا فإنّ الحديث عن طبيعةٍ بدويةٍ للإسلام ـ بسبب العناصر التكوينية للسكان، وبسبب جغرافيا الانتشار ـ هو حديثٌ غير صحيح، وهو ناجمٌ عن صُوَر وأنماط مُسْبقة. ولابد من أجل فهم عالَم الإسلام اليوم من العودة إلى الأصول العَقدية من جهة، وإلى تطورات الدولة والانتشار العمراني والحضاري والبشري، ثم كيف تغيَّرت سائر المسائل في الأزمنة الحديثة والمعاصرة.

يقوم التصور القرآني للعالم على أنّ الناس فيه كانوا أُمّةً واحدةً لصدورهم عن أصلٍ واحد، ثم كان الاختلاف الذي بمقتضاه صار النـاسُ أُمماً، ولم تغب عنهم منذ ذلك الانقسام أشواق العودة إلى الأصل ونوازع الاختلاف، وظهرت سلطاتٌ في الأُمَم، وبعث الله النبيين والمرسلين دعوةً للدين الواحد، وكان كلُّ نبيٍ يُبعثُ إلى بني قومه خاصةً، وبعث الله محمداً ﷺ إلى الناس عامَّةً، بدءاً ببني قومه

وعشـيرته الأقربين. وعندما هاجر النبيُّ إلـى المدينة عام 622م كتب بين أهلها والذين هاجـروا معه كتّاباً عَدّهم فيه: «أمـةً واحدةً من دون الناس». وإلى هذه الجماعـة ودارِها فَرَض القـرآنُ الهجرة لدعم دار الإيمان الجديدة حتّـى كان فتْح مكة، فانتصرت مقولةُ الأُمّة الشـاملة، وجرى نَسْـخُ الهجرة العامة إلى المدينة، وصار المطلوب الانتشـار من أجل الدعوة، والسعي لكي تتطابق أمة الدعوة مع أمة الإجابة. والتطابُقُ لا يعني التوحُّد في دولةٍ واحدةٍ؛ لأنه بحسب القرآن فإنّ الناس سيبقون أُمَماً، وسـيبقى الاختلاف، وإنما المُراد اسـتمرار السـعْي إلى التوافُق والمُسالمة بين سائر الأُمم (= الشـعوب والقبائل) من طريق التعارُف؛ أي اعتراف كلٍ منهـم بالآخر الفردي والجماعـي. وطرائق التعامل بين المسلمين والآخرين بالداخل والخارج بحسب قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾.

كان لقيـام الخلافـة والدولـة وللفتوحـات دورٌ كبيرٌ فـي التطور التاريخي والبشري لدار الإسـلام؛ فالدولةُ التي قامت بالجزيرة غيرّت من التوازُنات الإستراتيجية بالمنطقة؛ إذ كانت هناك ثُنائية قطبية قائمة على إمبراطوريتي الروم والفرس. ولذا فقد اسـتدعى ذلك نزاعاً أفْضى إلى زوال الإمبراطورية الفارسـية، وانكمـاش الإمبراطورية البيزنطية، وهي الفترة التـي عُرفت في التاريخ الإسـلامي الأول بعصر الفتوحات. وقد كان هناك عصر فتوحاتٍ آخر زمـن العثمانيين بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر للميلاد. وهذا التوسـع الدُّوَلي أو الإمبراطوري كان بين أسباب الانتشار الإسلامي. لكنّ السبب الأهمَّ للانتشار هو الحضارة والثقافة اللتان نشرهما المسـلمون من طريق الدعوة والتعامل بإنصافٍ ومودّةٍ وتآلُفٍ مع الناس في قارتي آسيا وإفريقيا وفي أوروبا وأميركا في الأزمنة الوسـطى والحديثة. فالفتوحات تعرضت لمدٍ وجزْر، وزالت آثار